يدٌ تهزّ السرير وأخرى تُمسك بالقلم

علا بدوي

حين تتحول جميع عرباتك بذلك الاتجاه دفعة واحدة ... وقد اعتدتَ أن تراكَ معظم الوقت كالجسر المعلّق بين ضفتين ... والمنقسم بين مسارين للماضي والمستقبل...يتفاوت الازدحام المروري فيهما، ولكن الغلبة لاتجاه دون الآخر...فحيث من الصعب أن توقف لحظة حاضرة لتستقلّها بحضورها الكامل، فإنك غالباً ما تعدو خلفها نحو المستقبل الذي تهرول إليه على الرغم من ضبابية المسار ... أو أنها تمضي من خلفك بسرعة لا تكاد تدركها إلا حين تتوقف في أفنيتك البعيدة، حيث تتكدس أخريات كثيرات غيرها، منها الصدئة ومنها التي لا تزال ببعض بريقها، ومنها ما لا تكاد تصدّق أنها قد اصطفّت هناك.

هذا ما أظنّه يحدث الآن ...أراني أسير في تلك الأفنية بذهول من هبط إلى البيدروم باحثاً عن أشياء معينة، ففاجأه تراكم الأغراض، وفاجأته الأغراض نفسها ... بحيث لم يعد يميّز ما جاء يبحث عنه...وكأنّما صارت مهمّته أن يقوم بتحريك غرضٍ بعينه من سكونه دون أن تتحرك أغراض أخرى كثيرة تحته وأعلاه وعلى جوانبه ... وقد صارت وكأنّها جميعاً غرض واحد متعدّد الملامح.

قد كنت لفترة طويلة أظنّني أميل لقول **أندريه جيد** «إنّني لا أحب النظر إلى الوراء، بل هاأنذا أخلّف ماضيّ وراء ظهري، مثلي كمثل الطير الذي يفترق عن ظله لكي يضرب بأجنحته في أجواز الفضاء»، ولكن حين أفكر بمنبع تأثري بهذه الفلسفة أجد أنها كانت درعي الذي حملته عبر الماضي والحاضر لمواجهة ما يقابلني من صعوبات لا تنتهي، وواقع الأمر أني لم أكن يوماً أطيق السكون والانتظار ... فالسكون الذي جرّبته كان موتاً، والانتظار كان احتضاراً غير منتَبَهٍ إليه.

«عمّو.. بيقول لك البابا كلّم التاتا»

هذا هو درسي الأول الذي التقطته بسهولة من الفناء المتراكم... وربّما كان هو درسي الأول في الحياة ذاتها...وهذه ليست المرة الأولى التي أكتب عنه، ربما لهذا كان سهلاً التقاطه، أو ربما أنني أكرر الكتابة عنه لسهولة التقاطه.

ما سيجعل قصتي هذه تبدو وكأنها ارتباك خيالات حاولت ارتداء أزياء واقعية، أن أمي مازالت تؤكد لي أنني بدأت تجربة الكلام والمشي في سن مبكرة، حيث لم أكن أتجاوز الشهر التاسع من عمري ... ولكن ما يدهشني أنا أيضاً أنه كيف لي أني حتى اليوم ما زلت أشعر بما شعرته يومها، وأنا في هذا العمر من مشاعر مختلطة من حيرة وغضب وإحباط وتحدٍّ ورهبة ومثابرة.

كيف أني ما زلت أذكر تلك الحلقة ممن كانوا يراقبونني وأنا أخطو جيئة وإياباً بينهم، على الرغم من ضبابية الوجوه ... كيف أنه مازال صوت والدي يقرع ناقوس سمعي وهي يخبرني بحضور مجموعة من الأقارب «قولي لعمّو: عمّو بيقول لك البابا، كلّم التاتا». وكانت روحي تهرول لتنفيذ ما طلبه على الرغم من شعوري ببطء جسدي، وشعوري بطول المسافة بينه وبين موضع عمّي في أقصى الحلقة، وكأني حين أتحرك بينهما أقطع الطريق العام الذي يربط طرفي مدينتي ... وأجزم أني تحدّثت إلى عمّي كما طلب مني والدي ... هكذا كنت أسمعني بداخلي ... كنت أسمعني أتكلم كما تكلّم والدي تماماً ... ولكن عند خروج صوتي من داخلي للفضاء كان يبدو مختلفاً...لم أكن أسمعني أتلفّظ بالكلمات كما أتحدث بها داخلي ... وكانوا يضحكون ... وكنت أشعر بالإحباط ... وأعود إلى والدي من جديد ليعيد طلبه من جديد وأعود أشعر بتحدٍّ جديد ... أعيد قطع طريقي مرات أخرى يحدوني أمل النجاح على الرغم من صعوبته عليّ. وكلما كدت أظن أنني نجحت ... أسمعهم يضحكون عليّ من جديد!

ربّما لهذا ما زلت حتى اليوم أشعر بالغضب من وصف أي طفل، أياً كانت قدراته الطبيعية، بأنه غير قابل للتعلم، وربّما لهذا أيضاً كنت في حصصي الدراسية حين أواجه صمت بعض الطلاب الصغار، لاسيما في الصف الأول، وإخفاقهم في التعلم بالكيفية التي أؤديها معهم، والنوعية التي يؤديها أقرانهم ... كنت أشعر بفشلي ... وأغادر المدرسة إلى بيتي أحمل صراعاً بين حاجتي للعمل وبين صورتي لذاتي بأني لا أجيد أن أكون معلمة... وأنّي مذنبة بحق هؤلاء الصغار ... ولكن، في معظم الأحوال، وعلى الرغم من تكرار هذا الشعور، وعدم انتهائه، فإنني كنت أعود في اليوم الجديد محمّلة بالتحدّي أني لابد أن أنجح لأنهم لابدّ أن ينجحوا.

«أحقاً مرَّت كل تلك السنوات...هل سأصبح في الصف الثالث؟!»

تُسائل نفسها بينما تعتلي الأرجوحة الزرقاء المثبَّتة بأكياس الرمل في الفناء الصغير لبيتها، طفلة في الثامنة من عمرها.

كانت المرة الأولى ربَّما التي أتأمل فيها ذاتي وما يمرّ بي من أحداث...هل يتأمل الأطفال ذواتهم وحياتهم؟...ولكنّي كنت طفلة عندما أخذت الأرجوحة تروح وتجيئ بي بين أحواض الزرع البسيطة في بيت والدي. وكأنَّما تتقلني بين ماضٍ وحاضر ... ماضٍ لطفلة اعتقدته حينها عمراً طويلا؛ أن تلتحق بروضتين مدة عامين، وتجتاز عامها المدرسي الثاني...ترى الآن اسم روضتي كان «حلزونة» شعرت أن وقتاً طويلاً مرّ بي!

يتكرَّر لدي الآن السؤال نفسه، وأنا أحاول كتابة حكايتي –إن جازت التسمية– كمعلمة ... أستعيد أشرطة حياتي التي تبعثر بعضها في أدراج الذاكرة، وغطّى البعض الآخر غبار الأيام...وفقد الباقي دونما سبب أعلمه.

أستعيد هذه القصص وكأنَّما لم تحدث إلا من وقت قريب ... أستعيدها وأتأملني من جديد بشكل لم أفعله ربما من قبل، وأسأل نفسي الآن ... اللحظة ...**«ألهذا أصبحت معلّمة؟؟»**

لولا المناديل المعّطرة ...لم أكن معلّمة

تعلنُ حواسّي حالة استنفار قصوى وأنا أتسلّل إلى غرفتها خفيةً ومعي دفتري الصغير ... أغلقُ الباب بتؤدة ... وأهرول نحو خزانة الزينة ... أتناول بعض المناديل الورقية من العلبة القريبة وأضعها جانباً لتبرق عيناي كقط وجد فريسة طال انتظارها، بينما تمتد يدي إلى قارورة عطر بعينها ... أنزع الغطاء وأشتمّه بنشوة المنتصر... ثم أبدأ بنثر العطر في كل منديل ورقي على حدة ... وأعمل على طيّ كل منها من المنتصف ... ثم أضعها بين وريقات الدفتر.

«أنا معلمة» ... أقولها بقوة بينما أتنهّد بنشوةٍ عارمة وأنا أشتمّ دفتري المترع بالمناديل المعطّرة...لم أكن عندها أتجاوز التاسعة من عمري حين كنت أستمتع بشعوري أنّي معلمة ... وكنت أحمل دفتري وأنهمك بعدها بتدوين أشياء للحصة التي سأقوم بأدائها مع أطفال الحيّ الذين يصغرونني سناً.

وهكذا ... كلّما غادرت عمّتي –التي كانت تعمل معلمة في إحدى المدارس الثانوية– البيت الذي تقطنه معنا ... كنتُ أسارع إلى غرفتها لاقتناص قطرات من عطرها ومناديلها كي أخطو إلى عالم آخر ... كان تكفيني قطرات من العطر لتدخلني عالماً من الخيال أهيم فيه بمحاولات للكتابة التي لا أدري ما كنهها ... ثم أسارع للعب الدور مع الصغار. ما زلت أذكر السبورة الصغيرة التي أحضرها لي والدي كي أتعلم، فاستخدمتها كي أعلمّ، أو بالأحرى كي ألعب ونلعب وأتعلم ونتعلم.

أطعمتها الفستق ... لتطعمني قتلة

لم تكن معلّمة اللغة العربية في الصف الرابع تثق بأحد سواي لكي يشتري لها الفستق –غير المقشّر– من مقصف المدرسة في بداية الاستراحة، ولا أدري هل لأني كنت في حينها الأولى على فصلي، أم لسبب آخر لا أعلمه. ما إن يقرع الجرس حتى كانت تناديني وكنت بالطبع أتوقّع النداء، فأتوجه إليها مسبقاً لتطلب إليَّ الطلب ذاته كل يوم بالكلمات نفسها والأوصاف اللغوية نفسها ... «يلا يا أمورة ... 3 أكياس فستق من اللي عليه اللون الأخضر، وديري بالك اختاريهم منيح من الكرتونة، ما يكون عتيق ولا صغير ولا مفضّي ... احكيله للآنتي (ك)».

وهكذا كنت أقضي وقت استراحتي ما بين قطع الساحة المدرسية الواسعة حتى أصل إلى أقصاها حيث مكان المقصف المدرسي، وما بين انتظار دوري أو أي فرصة تسنح لي للتقدّم أمام حشود الطلاب المتدافعة للشراء، ثمّ في قطع الساحة المدرسية مرة أخرى إلى غرفة صفي حيث معلّمتي تنتظر الفستق.

في الحصة التالية للاستراحة كانت حصة اللغة العربية الثانية لهذا اليوم ... وكنت من قادة المجموعات الذين يتابعون دفاتر زملائهم للتحقق من أدائهم الواجبات البيتية ... هممتُ بفتح حقيبتي لإعداد دفاتري وكتابي قبل التوجه لمتابعة مهمتي ... ولكنّي فوجئت بأن دفتري غير موجود في الحقيبة ... ارتبكت وأخذت أعيد النظر بسرعة، ولكن لم يكن لديّ الوقت الكافي للبحث عنه...كان عليّ إنهاء مهمّتي مع الطالبات.

أخذت أتابع دفاتر زميلاتي وأنا أفكر بدفتري فلم يحدث مطلقاً أني نسيت دفتري في البيت ... وهل عليَّ الصمت أم عليّ إخبار

المعلمة ... وإن أخبرتها فما هو موقفي أمام زملائي...ولماذا أخفي أمري والجميع يعرف أني لا يمكن أن أهمل واجباتي ... وهكذا بعد صراع مع نفسي وجدتني أقف في مقعدي وأعترف لها بأني لا أحمل دفتري ...أظنني أملت يومها أن أقصى ما ستفعله هو توبيخي ببضع كلمات!

ما زلت حتى اللحظة أشعر بالقشعريرة ذاتها كلّما تذكرت تلك العصا العريضة الضخمة – المصنوعة من خشب السوّيت –والتي هوت بها على يديّ وما زلت لا أنسى أنَّي بعد الضربة الأولى كنت على وشك الجلوس لظني بأنها ستكتفي بها مثلما فعلت مع زميلاتي، ولكن هذا لم يحدث، وإنما أرادت أن تجعلني عبرة لهم باعتباري «الأولى على الفصل»، فتابعت ضربي بخمسٍ أخريات ليصبح العدد ستاً.

لا أدري لم ربطت العدد ستة بعدد أكياس الفستق باعتباره مضاعفاً لها. حين انهرت باكية ورأسي على المقعد كنت أقول لنفسي: «لن تأكلي الفستق بعد اليوم».

حدث أني التقيتها مرات عدة ... خلال العام الماضي وهذا العام ... وفي كل مرة كنت أسارع لمصافحتها وشكرها على جهدها في التعليم ... ولكن في كل مرة اعترم بداخلي لهب السؤال «لماذا العدد ستة؟ ... لماذا لم تكتفِ بواحدة أو اثنتين؟ ... لماذا اختارت العصا العريضة التي تسطر بها السبورة ... على الرغم من وجود المساطر الصغيرة والأكثر رحمة ... أكانت العدالة تعني أن الألم بقدر الأمل!

معلّمة الجامع وأستاذ العلوم: جعلتماني أخدع والدي

في الثانية عشرة من عمري انتابتني حمّى قراءة لم أعتدها ... فكنت أقرأ كل شيء أصادفه، ولمّا لم يتبقَّ جديد، أخذت أعكف على مكتبة المسجد القريب، فأستعير ما يسمح لي بالاطلاع عليه، ومن ثم انخرطت في حضور اللقاءات الإرشادية للفتيات.

في إحداها قالت معلمة الجامع «نحن مسلمون، ولكن علينا ألا نكون مسلمين لأنَّ أهلينا كذلك، وإنما علينا التفكير في الدين والتأمل فيما حولنا .... وأن نصل إلى كوننا مسلمين لأننا نحن من أراد ذلك، وليس لأنّنا نسبنا إليه، وأن نؤمن بالله لأننا نؤمن به، وليس لأنَّ أحداً يقول آمنوا به ...».

تأثرت جداً بأحاديث هذه المعلمة على الرغم من أنني كنت الأصغر سناً بين الطالبات، وأمضيت أوقاتاً طويلة بعدها أفكّر «لمَ أنا مسلمة؟ وهل تقصد المعلمة أن أفكر بهذه الطريقة أم أني أنَا من يفكر بهذه الطريقة لأن هذا ما فهمته؟ ... أترى ما فهمته هو ما تريدني أن أفهمه؟ كانت أسئلة كبيرة تراودني ... لاسيّما أنَّ أول صديقة لي منذ الصف الأول الابتدائي كانت نصرانية واسمها

المعلمة علا بدوي تشارك في إحدى ورشات المساق التكاملي حول عباءة الخبير.

«دينا» ... أهي مصادفة بحتة أنّ لاسمها علاقة بالدين؟! ومصادفة أيضاً أن صديقتي الجديدة أيضاً نصرانية -وقد أحببتها جداً حتى أني فيما بعد سميت ابنتي باسمها- ألهذا كان أول ما فعلته جدياً أني اشتريت كتاباً من محل لبيع الكتب لفت انتباهي عنوانه «إنجيل برنابا»؟! ... لا أدري!

بالطبع، لم يكن من السهل قراءة الكتاب، فبمجرد أن رأته والدتي غضبت جداً، وأمرتني بإرجاعه إلى حيث أتيت به ... فهل أرجع الكتاب؟!

كانت هذه مشكلة ألا أقرأ الكتاب، وقد كنت أستعد لمغامرة مثيرة ... والمشكلة الأخرى التي كنت أعاني منها أن والدي يمنعني من السهر، والسهر أيامها كان يعني البقاء مستيقظة إلى ما بعد آذان العشاء ... وكنت أتوق للقراءة ووقت النهار لا يكاد يكفي لمراجعة الدروس، فماذا أفعل ووالدي يحرص على الاطمئنان عليَّ وعلى إخوتي ليلاً؟!

أضاءت الفكرة برأسي لأنها كانت عن الضوء فعلاً ... وقد كنت أحتاج إلى ضوء بالمعنى الحقيقي والمجازي للكلمة ... وكان معلّم العلوم لم يكتف بالشرح عن استعمال حجر البطارية وصنع دائرة كهربية مغلقة في ذلك الوقت على الرغم من أن معظم دروسه كانت نظرية ...وإنما قام هو بنفسه بالتجريب في الحصة أمامنا ... وعلى الرغم من عدم مشاركتنا، فإن مشاهدته كانت مثيرة جداً لنا كطلاب ... لهذا فكرت لمَ لا أطبّق الفكرة وأستفيد منها ... لمَ لا أشعل لي ضوءاً تحت غطاء سريري؟!

وكان فعلاً، وجلبت حجر بطارية متوسط، وصنعت دائرة كهربية، وحين أزف موعد نومي كانت لمبة صغيرة تضيء لي عالمي الخاص تحت غطاء السرير الذي جعلته يلفّني كاملة ... وهكذا جعلت أقرأ وأقرأ ... بعد قرابة ساعة سمعت خطوات والدي في الممر المجاور متجهة إلى غرفتي ... فقد كان معتاداً على تفقدنا خلال الليل ... كادت أنفاسي تنقطع حين ولج الغرفة وصرت أتخيّله قد اكتشف ما أفعله ... ولكن ذلك لم يحدث ... وبقيت لفترة طويلة من الزمن أتبع الحيلة نفسها، بل ووسّعتها في مرحلة المراهقة إلى وضع الراديو تحت الوسادة كي أسهر حتى الفجر أقرأ وأستمع إلى برامجي المفضلة على أثير «مونتي كارلو».

أبداً لم تغب عني هذه الحادثة ... أليس هذا بتعلم ذي معنى ... بغض النظر عن أنه كان حيلة، ولكنه جعلني أشعر، بقوة، بأهمية إدراك حاجات الطلاب واهتماماتهم بالدرجة الأولى قبل إدراك طرق واستراتيجيات التدريس المحدثة. كانت لدي قناعة، على الرغم من شغفي للتعلم، أنه يمكنني ابتكار أساليب خاصة بي في التعليم، بناء على ما أشعر به من حاجات الطلاب، وكذلك يمكن للطلاب التفاعل معي إلى أقصى حد إن بقيت أؤمن أنه لا حدّ لقدراتهم.

يدٌ تهزّ السرير ويدٌ تهزّ القلم ... تذهب لأداء امتحان فتفاجأ بامتحان آخر

أغلقت باب غرفتي وسارعت نحو الشرفة ... أخرجت ورقة مطوية من جيبي ... تشبّثت بها جيّداً بينما أقرأ ما فيها ... تلك الورقة التي تعرض التخصصات الجامعية في جامعة القدس المفتوحة ... لم أدرِ أكان تشبّثي بها بتلك القوة التي تراود ذاكرة يدي الآن لما كانت تعرضه لي من خيارات متعدّدة ...أم لأنّي أخيراً سأتعلم؟!

كنت على وشك استقبال طفلي الأول ... ولم يكن من أحد أستشيره بشأن التخصص الجامعي، فقد كانت الفكرة وقتها مرفوضة شكلاً وموضوعاً لدى عائلة زوجي، لاسيما تزامن الظروف الاجتماعية والفكرية السائدة خلال الانتفاضة الثانية، وتجميد الدراسة في الجامعات المحلية، وقد بقيت بعدها لفترة منتسبة للجامعة سراً حتى تمكنت من إقناع العائلة بأن التحاقي بالجامعة لن يؤثر عليهم سلباً، فلم تكن قدماي تطأ أرضها إلا أيام الامتحانات، ولم يحدث أني أمسكت كتاباً بحضورهم مطلقاً.

لم أعرف ماذا أختار وأنا أتأمل الصحيفة...فعلى الرغم من أنني أعجبت بدور المعلمة منذ نعومة أظفاري، ولكني عشقت الفن، وبخاصة الرسم، ويعود الفضل في ذلك لمعلم التربية الفنية في المرحلة الإعدادية الذي لا أذكر من معلمي هذه المرحلة سواه هو ومعلمة اللغة الإنجليزية، ولا أدري لمَ لا أذكر أيّاً من معلماتي في تلك المرحلة تحديداً، وكأنهن تحولنَ إلى ظلال رمادية غامقة لا ملامح لها ولا اسم، ألأنها تزامنت مع الانتفاضة الأولى وكان هناك ما هو أكبر، أم لأنها مرحلة متوسطة، أم لأني لم أتأثر بأحد فيها، أم لأنه كان لي عالم آخر من القراءة والاستكشاف والتأمل؟!

أذكر أني في تلك المرحلة رسمت لوحة عن الاحتلال، وحدث أن أعجب بها بعض الزوار الأجانب للمدرسة، وأخبرني معلمي بأنّه ربما سيجرى معي لقاء صحافياً خلال أيام، وقد سارعت يومها بنشر الخبر في عائلتي لأفاجأ بغضب والدي -على الرغم من أنه كان يهوى الموسيقى، ويشجعني على الرسم- لكنه صرخ بي يومها «بدّك تجيبيلنا اليهود بدك تخربي بيتنا!». ومنذ ذلك اليوم لم أعد أرسم إلا حين تطغى رغبتي بشكل لا أستطيع كبحها، وكانت آخر محاولاتي للرسم تلك التجربة التي قيَّمها الفنان الفلسطيني كامل

المغني –والد صديقتي في الثانوية العامة– بأنه يمكن إنتاج خمس لوحات جميلة منها، وأن علي عدم التوقف عن الرسم ... وما حدث بعدها أني توقفت نهائياً عن الرسم، فقد كانت الأقدار ترسم لي حياة أخرى مختلفة تماماً عن كل توقعاتي.

إذاً، ماذا أختار لدراستي الجامعية؟! كنت قد أحببت أيضاً قراءة الأدب والكتابة، ولو أني عايشت حينها ظروفاً مغايرة لما ترددت في اتخاذ قرار بدراسة الفنون أو الآداب، ولكن الظروف القائمة كانت تجعلني أفكر في المجال الذي سيوفر لي فرصة عمل. لهذا لم يكن سوى كلية التربية، وكان علي اختيار التخصص التربوي المناسب ... وأيضاً لم يكن الاختيار سهلاً، فأنا أحب اللغة العربية، ولكن الرياضيات والفيزياء كانت تستهويني جداً كمنبع تحدٍّ لتفكيري ... ولا أذكر يوماً أني قمت بحل مسألة رياضية في المرحلة الثانوية دون أن أبحث لها عن حل آخر أفاجئ به المعلمة ... بعد تفكير عميق وجدتني أختار اللغة الإنجليزية على الرغم من علمي بأني لن أتمكن من حضور محاضرة دراسية واحدة. وعلى الرغم من علمي بصعوبة القادم، فإنني كنت أفكّر بالأكثر ضمانة لي للعمل على الرغم من معرفتي بأنه فكرة شبه مستحيلة أخرى عليّ إثبات عكسها.

وهكذا أصبحت طالبة تدرس اللغة الإنجليزية ... وأصبحت أماً في الوقت ذاته...وكان عليّ رعاية طفلي وتحمل مسؤولية بيتي ومسؤولياتي نحو العائلة، وعلي في الوقت ذاته إيجاد بديل للمحاضرات التي لم أشارك في أي منها؛ إما بسبب الدراسة سراً في البداية، وإما لأن شرط إكمال دراستي فيما بعد كان التزام البيت. حاولت حساب الوقت المتوافر لي لاستخلاص ما أمكن للمذاكرة، ولكن لم يكن من وقت أصلاً يتوافر لي ليمكن حسابه، لهذا قررت المزاوجة بين الأمور ... فكنت أجلس على مكتبي أهز سرير طفلي بيدي اليسرى وأهز قلمي بيدي اليمنى ... وكان علي إيجاد بدائل لكل شيء، فكنت أقوم بأعمال البيت تزامناً مع الإصغاء إلى البرامج التلفازية والإذاعية المقدمة باللغة الإنجليزية لكي أتعلم اللغة ... كما كانت الكتب تتنقل معي من الغرفة إلى المطبخ إلى غرفة أخرى للجمع بين القيام بأعباء منزل العائلة الكبير وبين حاجتي ورغبتي في التعلم، ولم يكن الأمر سهلاً أبداً ... ولكني تعلّمت.

«راعية أغنام» ... تجربتي الأولى في التعليم

لا أنسى أبداً ذلك اليوم الذي رفعت فيه سماعة الهاتف ليصلني صوت يسألني :»أنت علا بدوي؟» على الرغم من أنه منذ نجاحي في مسابقة التوظيف لوكالة الغوث، وتزامن ذلك مع القرار الذي أحزنني بإضافة أسماء الناجحين إلى قائمة الانتظار، وتعيين من سبقونا بسنوات، ولا أنسى أنني كنت بعدها في كل يوم أنتظر رنين

جانب من مشاركة المعلمة علا بدوي في لقاءات المعلمين.

الهاتف، ولكنه كان يوم جمعة حين سمعت الصوت يتحدث بما لم أتوقعه أبداً يومها ... وأردف بأنَّ علي التوجه لمكتب الوكالة لتوقيع عقد تعييني.

«في بيت حانون ... أقصى شمالها» أجابني من سألته عن مكان المدرسة التي تعينت بها! كانت صدمة محت فرحتي كلها. كيف لي العمل في هذا المكان النّائي؟ وكيف لي التوجه إليه أصلاً وأنا المنغلقة علي جدران بيتي منذ أنهيت دراستي الثانوية؟ وكيف لي إقناع العائلة بإمكانية عملي هناك وأنا نفسي لا أدري لذلك سبيلاً؟ ولكن ما حدث أن الجميع وافق مباشرة على عملي.

وأصبحت معلمة في بلدة بيت حانون، حيث يعيش مجتمع قبلي يختلف في كثير من عاداته عن مجتمع غزة، ولكنه يتميّز بشجاعة أهله وصلابتهم في مواجهة الاحتلال، وقد كان من السهل لي مشاهدة المدرعات المصطفة قرب الحدود من الغرف الدراسية التي أعلّم فيها.

كان أبرز ما قيل لي عن الطلاب هناك أنهم إما متفوقون جداً وإما .... –ولا يجوز كتابة الكلمة في هذا المقام– ولم تكن من معلمة تسير في المدرسة في تلك الفترة دون أن تحمل في يدها خرطوم المياه الأسود السميك –لم يكن في وقتها أي قوانين منشورة تمنع العقاب البدني أو تحاسب رسمياً عليه– وبما أنني حديثة التعيين، كان عليَّ القيام بما يقوم به ذوو الخبرة. في البداية، لم أرضَ حمل الخرطوم، ورفضت الفكرة كلياً، ولكن الطلاب، وبخاصة الذكور الذين تجاوز بعضهم الرابعة عشرة لم يلتزموا بقوانين المدرسة في يوم مناوبتي، وكانوا يقومون بالعبث هنا وهناك، فاضطررت لحمل الخرطوم الأسود!

كانت أسوأ فترة أذكرها، وأشعر بكراهيتي لنفسي حينما كنت أتنقل بين الممرات الداخلية للمبنى وبيدي ذلك الخرطوم الأسود، وعلى الرغم من أني لم أستعمله في الضرب، لكني كنت أراقب زميلاتي كيف يخطون من غرفة إلى أخرى، ومن مكان إلى آخر، لا يفارق أيديهن. وحدها المرشدة النفسية لم تكن تحمله مطلقاً، ووحدها من بدأت ألاحظ إقبال الطلاب عليها وحبّهم لها وتفاعلهم معها بإيجابية واضحة.

كنت أهبط الدرج المؤدي من الطابق الثاني إلى الأرضي حين لمحت حاوية النفايات السوداء عند أسفله. وكنت أحمل الخرطوم الأسود بيدي ومجموعة من الطلاب يسيرون في ممر الطابق الأرضي قريباً من الدرج. لا أدري لمَ شعرت لحظتها تحديداً أني راعية أغنام ... تأملت الطلاب للحظات قصيرة بدت كأطول ما يكون حين قلت لنفسي «إنهم ليسوا أغناماً تساق بالعصا»، ووجدتني ألقي بالخرطوم الأسود في الحاوية السوداء، لم يكن عندها في الممر سوى طالب واحد من الطلبة الكبار في العمر. ما زلت أذكر ابتسامته لي في تلك اللحظة. أظنها كانت ابتسامة حقيقية!

ومن يومها لم أحمل بيدي لا خرطوماً ولا عصاً ولا أي شيء من هذا القبيل. توجهت بعدها للمرشدة، وبدأت بالتقرب منها وأخبرتها عن إعجابي بسلوكها مع الطلاب، وعن رغبتي بمعرفة السر في ذلك. أجابتني بأنه «الحب»، فأخبرتها بأني أحبهم جداً، ولكنهم في غاية العنف والشراسة. أشفقت علي يومها، وأخبرتني بأني وحدي لن أستطيع تغيير كل شيء، ولكن هذا لا يعني ألا أحاول على الأقل في حصصي الدراسية، فهؤلاء الشرسون هم، في النهاية، أطفال أجبرتهم ظروفهم على هذه السلوكات. ما زلت حتى اليوم أشعر بالتقدير لهذه الإنسانة التي شجعتني على القراءة في علم النفس، والالتحاق بدورة التوجيه والإرشاد، وأي دورة أخرى، فلابد أن أجد شيئاً أتعلمه. وهذا ما حدث فعلاً.

تذكَّرتني ولم أتذكرها...سامحيني معلّمتي!

تجلسُ على المقعد الجلدي ... بأكتاف هزيلة وظهر محنيّ ... تربط منديلاً أبيض حول رأسها يكشف عن بعض شعيرات بيضاء وأخرى تصطبغ بالحنّاء ... في عينيها بريقٌ حزن مكتوم شعرت أنه يخترقني ... أخذت أتطلع إليها ... بينما أجلس على مقعد آخر في قاعة الانتظار أنتظر انتهاء اجتماع الموظفين في المبنى الخاص بالموارد البشرية ... التقت عيوننا فتبسّمت لها وقلت: «إنهم في اجتماع سينتهي خلال دقائق». حاولت محادثتها فشعرت بأنها لا ترغب في الحديث كثيراً. مرّ بنا مدير القسم –موظف دولي– فطرح عليَّ التحية ومرَّ بعض الموظفين الآخرين ففعلوا الشيء ذاته، وتبادلوا معي بعض الأحاديث ... بينما كانت هي ترقبني باندهاش لم أفهمه ... بدأت تسألني عن عملي، فسألتها عن عملها وأمور أخرى ... وطال الحديث حتى عرفت مني أني كنت طالبة في المدرسة الإعدادية ذاتها التي عملت بها. سألتني عن اسمي فأجبتها فارتسمت على وجهها نظرة اقشعرَّ لها جسدي. قالت بصوت مرتفع «أنت علا؟!» أومأت برأسي ... فأردفت: «لقد علمتك» ... لا أدري لم تسرعت بالرد وبطريقة جازمة «أنا أذكر معلماتي جيداً ... ربما لست أنا من تقصدين»، ولكن للأسف اكتشفت من حديثها أنها كانت معلمة الأشغال اليدوية –الخياطة والتطريز– التي علمتني ولم أكُ في حينها أبالي بهذا الموضوع، فما كان يهمني هو الرسم والكتابة، ولم أشأ أن يشغلني غيرهما، وتذكرتها ولكن كطيف رمادي بعيد ... تذكرت امرأة لم تكن تضع منديلاً على رأسها في ذلك الوقت، وكانت تهتم بزميلاتي اللواتي يقمن بالتطريز مع أمهاتهن للمشاركة في المعرض المقام من

الدائرة، وبالطبع لم أكن منهن.

وجدت نفسي أهجم عليها وأقبل رأسها ووجنتيها ... وأعتذر لها ... تمنيت لو انشقت الأرض وابتلعتني لحظتها ... ولكني الآن أعترف بأني لا أتذكر أيّاً من معلمي المرحلة الإعدادية سوى معلم الفن ومعلمة اللغة الإنجليزية.

أوائل القطاع يصبحن معلّمات! خسارة!

هذا ما قاله لي نائب المدير في المدرسة التي كنت فيها طالبة في المرحلة الابتدائية حين زرتها في بداية عملي كمعلمة، وأجبت سؤاله عن عملي بأني معلمة في وكالة الغوث ... ما زلت أذكر علامات التعجب التي أبداها ... وما زلت أشعر بالمرارة التي فاضت بحلقي حينما استهجن مصيري كمعلمة. وعلمت منه أنَّ قريناتي قد أصبح معظمهن طبيبات، وأن منهن المهندسة، ومنهن من تعمل في الخارج. حدَّثني عن أبنائه وبناته أيضاً وعن حاضرهم الباهر في الطب والصيدلة، على الرغم من أنّ أحداً منهم لم يتفوّق عليَّ يوماً. ما آلمني يومها أنَّه لم يكن يقلّل من قدري فقط، وإنما كان يقلل من قدر نفسه. توقعت لأن يفخر بي لأني اتبعت خطى من علّموني. ألم يكن هو نفسه معلّمي ذات يوم! هل يعني كوني معلّمة أنني قد فشلت وأن الآخرين قد حققوا مستقبلاً لهم أفضل مني بكثير؟! إنه حتى لم يسألني: لم توجهت للتعليم؟ لم يسألني عن شعوري بكوني معلمة! لم يسألني عن طلابي وطالباتي! يومها قلت لنفسي وأنا أغادر المدرسة: سأجتهد أن أفعل ما لم يفعله الطبيب والمهندس!

«إنتي بتلعبي ... مش بتعلمي» هذا ما قالته لي

كلَّما حاولت تطوير قدراتي كمعلمة واجهتُ قلة الموارد المتاحة لي باللغة الإنجليزية أو قدمها، وكنت في صراع وقتها بين كوني معلمة لغة إنجليزية تحبّ ما تقوم به، ولكنها تفضّل لو كانت معلمة صف تعلم جميع المواضيع الدراسية.

لم توافق مديرة مدرستي التي عملت بها بعد عملي في بيت حانون على التحاقي بدورة الوورد لينكس (World Links) المقدمة عبر وكالة الغوث التي كان مفترضاً أن تستغرق عامين ... حيث كنت وقتها أواظب على حضور دورة تدريبية هي «التوجيه والإرشاد النفسي»، ومدتها عام أيضاً. واضطررت مديرة مدرستي للموافقة عندما وجدتني أصرّ على ذلك الأمر، وأكرر طلبي بطرق مختلفة، لاسيّما في ظل عدم وجود أي رغبة لأي معلمة في المدرسة في الالتحاق بها.

كانت هذه الدورة تتطلب معرفة متقدمة نوعاً ما بالحاسوب، ولم أكن يومها حتى أدري شيئاً عن كيفية تشغيله. ولكن رغبتي في التعلم لم يكن لها حدود، وزادني إصراراً علمي بأن التكنولوجيا ستفتح لي مجالات واسعة لتطوير طرق تعليم طلابي. وهكذا كان علي امتلاك جهاز حاسوب لأتمكن من تعليم نفسي أساسياته قبل أن ألتحق بهذه الدورة المتقدمة ... وبالفعل حصلت على الجهاز خلال أيام، وعلمت نفسي بنفسي، ولم أكتف بالمهارات العادية التي كنَّا نتعلّمها في الدورة التدريبية، بل حرصت على أصعبها حينذاك، وكان عبارة عن تصميم صفحات إلكترونية ضمن ما يعرف بـ «الويب كويست»، أو «الرحلة المعرفية»، التي تقدم للطلاب الفرصة للتعلّم عبر التكنولوجيا والإنترنت، والبحث عن المعرفة واكتشافها ضمن سياقات افتراضية تحفز الرغبة للتساؤل والمعرفة والاكتشاف والفهم وتبادل الخبرات، وتيسّر امتلاك الأدوات الإرشادية في هيئة مخطط مغامرة تعلمية في سياق افتراضي.

وهكذا كانت الشبكة العنكبوتية بوابتي الشخصية للتعلم والانفتاح على العالم المغلق من قبل حولي ... وهكذا أصبحت أبحث في مجالات مختلفة، وأكتسب المزيد من المعارف والخبرات، ما جعلني أبتعد عن نظريات المألوف والمتعارف عليه باعتباره قانوناً يجب اتباعه، وصرت أجرب طرائق تعليمية جديدة فجربت دمج التربية الفنية مع اللغة الإنجليزية للطالبات من الثالث وحتى السادس، وجربت تحويل بعض الدروس إلى أناشيد خاصة للصفوف التي تشتمل الذكور، وأذكر أنهم كانوا يقومون بالدبكة في حصصي ولم أمتنع عن مشاركتهم، بل استمتعت بذلك ... كما جربت تعليم طلاب الصف الأول جميع الأحرف عن طريق الأداء الحركي، وتمثيل الحرف بكامل الجسد، وكنت أضطر أحياناً لاعتلاء الطاولة والأداء فوقها لكي يحاكي الطلاب ما أقوم به ثم يطورونه إلى حركاتهم الخاصة ... كما كنت أحوسب الدروس لطلابي وأوظف التكنولوجيا بشكل شبه يومي في حصصي الدراسية ... وحينما شعرت بتمكّني، أخذت أوسع أنشطتي لتنفيذ أنشطة إرشادية وتثقيفية وترفيهية للطلاب بعد ساعات الدوام المدرسي، لاسيما في مواضيع حقوق الإنسان التي استهوتني كموضوع بشكل خاص، ولم يكن في ذلك الحين أي منهاج خاص به.

في نهاية أحد الأعوام الدراسية، كانت وكالة الغوث الدولية تكرّم المعلمين الذين يحققون فروقات أداء عالية فيما يتعلق بمعدلات طلاب في الفصلين الدراسيين، وتصادف أن كانت المديرة تتحدث عن كوني أحرزت أعلى فرق أداء في منطقة غزة –آنذاك– في حضور زميلة لي –وهي مجتهدة في عملها، ولكن بشكل تقليدي– فما كان منها إلا أن قالت لي: «أصلاً إنتي بتلعبي مش بتعلمي».

ما زلت حتى اليوم وأنا أعمل مديراً مساعداً، أحلم بيوم يلعب فيه الطالب والمعلم، بينما يتعلم كلاهما.

مدير مساعد في مدرسة بنات غزة الإعدادية (ب)